تأثير القرآن الكريم في نشأة النحو

الدكتور أحمد جميل شامي
استاذ النحو والصرف في
الجامعة اللبنانية ـ الفرع الخامس

لا شكَّ في أنَّ الارتباط بين القرآن الكريم ونشأة النحو وثيق للغاية، إذ إنَّ هذا الكتاب المبارك كان له تأثير بعيد المدى في نشأة هذا العلم، وتطوره وازدهاره على مرِّ الأيام، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساهمت في ظهوره، ونموه، وبلوغه المستوى الرَّاقي.

لكنَّ الذي يعيننا، في هذا البحث، هو العامل الهام والفاعل المتمثل بالقرآن المجيد، باعتباره السبب المباشر في نشأة النحو العربي.

وفي هذا البحث، لا بُدَّ لنا من الحديث عن عظمة كتاب الله، وأهميته، ومقاصده التي دفعت النبيَّ (ص)، والصحابة، والفقهاء، والعلماء والغيورين على الدين الحنيف إلى تعظيمه وتمجيده والعناية به وحمايته، إذ هو ﴿هُدىً وَرَحمةٌ لِقوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾(١) و﴿بُشْرى لِلمؤْمِنين﴾(٢)، منزلٌ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكيْم عَليْم﴾(٣) فانبروا لصونه من خلال المحافظة على اللغة العربية التي أنزله الله تعالى، بها. فهو ﴿الَّذي لاَ يأْتيه الْبَاطِلُ مِنْ بيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكيْمٍ حَميدٍ﴾(٤).

وتتجلّى عظمة القرآن وتمجيده في معظم الآيات الكريمة، نذكر بعضها، على سبيل المثال لا الحصر. قال الله تعالى: ﴿ولَقَدْ أتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المثاني والقُرآنَ العَظيمَ﴾(٥). وهل أعظم من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٣.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

القرآن الذي تخشع له الجبال وتتصدع خوفاً من الله؟! . جاء في قوله تعالى: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[٦]. وهل لدي الإنس والجنّ شيء أسمى مَجْداً، وأعمق حكمة، وأغزر كرماً، وأظهر إبانة من القرآن الكريم؟ فقد مجّده الله بقوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد﴾[٧]، بل ﴿هو قرآن مجيد﴾[٨]، وأظهر حكمته، وهداه وكرمه بقوله عزّ وجلّ: ﴿والقرآن الحكيم﴾[٩]، ﴿والكتاب المبين﴾[١٠]، ﴿إنه لقرآن كريم﴾[١١].

وتتقاطر الآيات البيّنات في رحاب القرآن الكريم كاشفة مقاصده وفوائده على العالمين، مبشرة بنشر العدل. قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[١٢]، وهداية الناس إلى الرشد في قوله عزّ شأنه ﴿يهدي إلى الرشد﴾[١٣]، والتفريق بين الحق والباطل كقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[١٤]، وشفاء ورحمة، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[١٥]، وعظة للناس في قوله عزّ ذكره: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[١٦].

إنّ أهمية كتاب الله تكمن في وضوحه واستقامة معانيه، إذ لا لَبْسَ فيه ولا اختلاف، أنزله الله تبارك وتعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾[١٧] ضارباً فيه من كل مثل تحذيراً للناس وتنبيهاً لهم. قال سبحانه وتعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾[١٨].

هذا بعض كلام الله جلّت قدرته، في تعظيم كتابه وتمجيده، وإبانة ما فيه من فوائد وأهداف سامية للبشرية. فهل هناك من كلام أصدق منه؟!

لذلك لا غرابة ولا عجب أن يحرص العلماء كل الحرص على الاهتمام بهذا الكتاب، وحمايته من كل شائبة تفسد معانيه، وتخلّ بقراءة آياته، وذلك بوضع علم يقنّن لغته ويقعّدها.

---

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٧) سورة ق، الآية: ١.
(٨) سورة البروج، الآية: ٢١.
(٩) سورة السد، الآية: ٦.
(١٠) سورة الزخرف، الآية: ٢.
(١١) سورة ق، الآية: ١.
(١٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦.
(١٣) سورة الجنّ، الآية: ٩.
(١٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥. الفرقان: التفريق بين الحق والباطل. تفسير الجلالين، ص٢٥.
(١٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(١٦) سورة التكوير، الآية: ٢٧.
(١٧) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(١٨) سورة الروم، الآية: ٥٨.

أمّا الرسول الأعظم (ص)، فيرى القرآن بحراً محيطاً بكل ما يعود على بني الإنسان من خير ونفع، فهو مصدر علم الأوّلين والآخرين، ومَن ابتغى هذا العلم، «فليثق بالقرآن»[١٩]. وهو سبيل النجاة في أوقات الشدة. قال رسول الله (ص): «إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، تبارك وتعالى»[٢٠]. ثمّ يؤكد النبيُّ (ص) أهمية الذكر الحكيم حين سأله قوم، فأجابهم بأنّ في القرآن نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. وهو فصل ليس بالهزل. مَنْ تركه تجبّراً قصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله. وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذّكر الحكيم، والصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يملُّه الأتقياء. مَن علم علمه سبق، ومَن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم[٢١].

ومن الفوائد القرآنية التي يظهرها الرسول (ص)، أنه أفضل شفيع عند الله. قال (ص): «ما من شفيع أفضل عند الله من القرآن، لا نبي ولا ملِك»[٢٢].

وروي عن ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال: «أشراف أمتي حملة القرآن»[٢٣].

وروي عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنّ رسول الله (ص) قال: «أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه»[٢٤].

وتظهر أهمية القرآن في نظر الأنبياء (ع)، من خلال رواية مفادها أنّ امرأةً مرّت على عيسى ابن مريم (ع)، فقالت: «طوبى لبطن حملك، وثديين رضعت منهما. قال عيسى: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبع ما فيه»[٢٥].

وأظهر الآراء في أهمية الكتاب العزيز ومكانته وتأثيره في حياة البشرية وتقدمها وبلوغها المراد آراء الإمام علي (ع)، الذي قال: «وكتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعي لسانه[٢٦]، وبيتٌ لا تهدم أركانه، وعِزٌّ لا تهزم أعوانه»[٢٧]. ثم يقرر الإمام (ع)، مقاصد القرآن بأنّ الله تعالى، بعث

(١٩) مقدمتان في علوم القآن ص ٢٥٥: مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية، نشرهما من المخطوطات المحفوظة ببرلين ودار الكتب المصرية، ووقف على تصحيحهما وطبعهما للمرة الأولى المستشرق الدكتور آرثر جفري.

(٢٠) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٢١) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢٣) مقدمتان في علوم القرآن، ص ٢٥٦.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٥٨.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٥٨.

(٢٦) يعْي من عَيِيَ. يقال: يعيُ ويَعْيَ عيّاً وعياءً. أي: لم يهتد لوجه مراده. وعَيتي الأمر أي: جهله القاموس المحيط للمعلم بطرس البستاني ومكتبة لبنان ـ ١٩٤٤ ـ ١٩٧٩. مادة ع ي ي.

(٢٧) نهج البلاغة للإمام علي شرح الشيخ محمد عبده. دار الهدى الوطنية بيروت ـ لبنان. ج ٢، ص ١٦.

الرسول (ص)، بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته «بقرآن قد بيّنه وأحكمه ليَعْلمَ العبادُ ربّهم إذا جهلوه، وليُعزُّوا به إذا جحدوه»[٢٨].

ولما كان القرآن يطفح بالفوائد العظيمة الناجعة، يحث الإمام علي (ع)، الناس على التمسك به قائلاً: «عليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، والنور المبين والشفاء النافع، والرّي الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، من قال به صدق، ومن عمل به سبق[٢٩].

وفي مكان آخر من «نهج البلاغة» يعدِّد الإمام فضائل القرآن ومآثره، فيعتبره الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يُضل، والمحدث الذي لا يكذب. فمن جالسه قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان في عمى. ويرى الإمام علي (ع)، أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبله من غنى، لذلك يقول للناس: «فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإنَّ منه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال»[٣٠].

وبعد استعراضنا لبعض كلام الله تعالى، في كتابه المجيد، ولبعض الأحاديث النبوية الشريفة، ولآراء الإمام علي (ع)، لإبراز عظمته وأهميته، ومراميه، نعرض لآراء أئمة وعلماء آخرين في فضل هذا القرآن وذلك للتوقف عند المزيد من أهميته وأهدافه التي دفعت العلماء إلى العناية به، والحرص الشديد على سلامة قراءته، والنطق به نطقاً صحيحاً، لتوضح معانيه لكل من آمن بربّ العالمين، ولتبقى هذه المعاني جلية واضحة لا لَبْسَ فيها ولا اختلاف.

إنه يختلف عن الشعر والخطب التي يملّ المرء منها في حين أن القرآن الكريم لا يملُّ. سئل الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): لِمَ صار الشعر والخطب يملّ ما أعيد منها، والقرآن لا يمل منه، فقال: «لأنَّ القرآن حجة على أهل الدهر الثاني، كما هو حجة على أهَل الدار الأول. فكل طائفة تتلقاه غضّاً جديداً، ولأنَّ كل امرىء في نفسه متى أعاده، فكّر فيه في كل مرَّة علوماً غضّة. وليس هذا كله في الشعر والخطب»[٣١].

إنه عبرة ودرس لمن اعتبر من خلال قصصه المتكررة غير مرة. قيل لحميد بن سعيد: «ما هذا الترديد للقصص في القرآن؟ فقال: ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظ في الاعتبار»[٣٢]. قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾[٣٣]. قال: الإسلام والقرآن[٣٤].

---

(٢٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩.
(٣٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩.
(٣١) مقدمتان في علوم القرآن، ص ٢٥٦.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٦
(٣٣) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٣٤) مقدمتان في علوم القرآن، ص ٢٥٨.

وفضلاً عن ذلك فالقرآن مرجع الفقهاء والحكماء والبلغاء لأنَّ ألفاظه لب كلام العرب، وزبدته، وواسطته، وكرائمه، إذ يعتمد عليها هؤلاء الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، والحذاق والبلغاء في نظمهم ونثرهم(٣٥).

ويقرر أبو حامد الغزالي بأن كتاب الله هو البحر المحيط، يزخر بأصناف الجواهر والنفائس(٣٦).

أمّا المفسرون فقد أظهروا عظمة القرآن وفوائده وغرائبه، في مقدمات تفاسيرهم، تأكيداً لما قاله الله، عزَّ شأنه، في كتابه، وما قاله الرسول (ص)، والخلفاء الراشدون وغيرهم. وما انكبابهم على تفسيره إلّا توضيح لمعانيه وكشف أسراره، وأحكامه وحكمه التي تهدي الناس إلى الصراط المستقيم. فالطبرسي يصرح بأن الله تعالى، أنزل القرآن على عباده، نوراً يتوقد مصباحه، وضياء يتلألأ لأصباحه، ودليلاً لا يخمد برهانه، وحقّاً لا تخذل أعوانه، وحبلاً وثيق العروة، وجبلاً منيع الذروة، وشفاءً للصدور، ليس وراءه شفاء، ودواءً للقلوب، ليس مثله دواء، وإماماً يقتدي به المقتدون، وعلماً يهتدي به المهتدون. لقد جعله الله عزَّ ذكره لأفئدة الأئمة ربيعاً مربعاً، ففيه رياض الحكم وأنوارها، وينابيع العلوم وبحارها، وأودية الحق وغيطانه، ومراتع العدل وغدرانه. ويسترسل الطبرسي في تأكيد عظمة القرآن وأهميته معتبراً علمه أشرف العلوم وأسناها، وأبهرها وأسماها، وأجلّها وأفضلها وأكملها(٣٧).

كذلك يؤكد القرطبي عظمة هذا الكتاب المبين وأهميته بأنَّ أحداً من الإنس والجنّ لا يستطيع أن يأتي بمثله لأنه الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته(٣٨). فهم ﴿لا يَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِراً﴾(٣٩).

تلك هي عظمة القرآن وأهميته وفضائله ومقاصده، أكدها الله عزَّ شأنه، في كتابه المجيد، والرسول (ص)، في حديث الشريف، والصحابة في أقوالهم، والفقهاء والعلماء والمفسرون في مؤلفاتهم.

وقد حفلت مصنفات العلماء والفقهاء والمؤلفين المحدثين بمظاهر عظمة كتاب الله وأهميته، لا مجال لذكرها، باعتبارها مكررة تأكيداً لكلام الله ورسوله بأن القرآن هو كلية الشريعة، وعمدة الملّة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه.

---

(٣٥) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٦.

(٣٦) جواهر القرآن ودرره لأبي حامد الغزالي، دار الآفاق ـ بيروت، ص ٨ ـ ٩.

(٣٧) مجمع البيان للشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. منشورات دار مكتبة الحياة ج ١، ص ١٨.

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣٩) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

إنَّ تأثير هذا الكتاب في حياة البشرية، بوجه عام، وفي حياة العرب بوجه خاص واضح كل الوضوح، إذ أنَّ التقدم العلمي الذي تنعم به الإنسانية في عصرنا الحاضر هو ثمرة حضارية أينعت في ظلال القرآن الكريم[٤٠] الذي أجمع العلماء والفقهاء على أنه أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، وحرَّرها من عبودية غير الله، وبين لها سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وحثها على فعل الخير والعمل الصالح، ونهاها عن المنكر والفحشاء. من هنا نؤكد أنه لا عجب على الإطلاق بأن يحرص المسلمون حرصاً شديداً على حفظه وفهمه والعمل به؛ إذ كانت سائر العلوم التي عرفوها أو ابتكروا فيها موجهة لخدمته، والإلمام بطرف من أسراره ومعانيه.

وكان انكباب هؤلاء العلماء على دراسته وإعرابه يهدف إلى تحقيق أسمى الغايات وأنبلها، وهي عبادة الله تعالى وخشيته، وتعمير الأرض، وتمكين كلمة الخالق عزَّ وجلَّ، فيها لتكون هي العليا دائماً[٤١].

وما دام القرآن الكريم على هذا الجانب الكبير من العظمة والأهمية، والغزارة بالفضائل، والفيض بالفوائد وبعد المقاصد، فهل من غرابة أو استهجان أن يهبَّ المسلمون لصونه من أي خطر يهدده؟ وهل من شيء أخطر من اللحن على قراءته، وفهم معانيه؟.

إذاً ما هو اللحن؟ وما الدواعي التي أدَّت إلى فشوه، وانتشاره، حتى أصاب اللغة العربية التي أنزل الله بها القرآن؟ وما آثاره على اللغة العربية، وعلى القرآن بالذات؟.

ينطوي اللحن على عدة معانٍ. فهو الخطأ والصواب. قال الأنباري: «يقال للخطأ لَحْنٌ وللصواب لحن»[٤٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٤٣]، أي: في صواب القول وصحته. وقال ابن الأعرابي: «يقال لَحَنَ الرجل يَلْحَنُ لَحْناً إذا أخطأ ولَحَنَ يَلْحَنُ إذا أصاب»[٤٤]. واللحن هو الفطنة. جاء في الحديث الشريف: «لعلَّ بعضهم أن يكون ألحن بحجّته من

---

(٤٠) في تاريخ القرآن وعلومه للدكتور محمد الدسوقي. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس. ص ٧.

(٤١) لقد أطلت الحديث عن عظمة كتاب الله ومقاصده، في بداية هذا البحث، الأمر الذي يدفع القارىء إلى الظن بأنني ابتعدت عن جوهر الموضوع. والحقيقة أني عمدت إلى هذه الإطالة، لأنني أرى أنَّ الحديث عن أهمية القرآن وفضائله، بهذا التفصيل، أمراً ضرورياً يقتضيها البحث. ولا يجوز أن يكون هذا الحديث سريعاً وعابراً، للتذكير فقط. وإلاّ كيف يمكننا أن نبين علاقة القرآن بنشأة النحو، إذا لم نبين صور هذه العظمة وغزارة هذه الفوائد التي حدَّت العلماء إلى حمايته من أي خطر، ودفعتهم إلى وضع علم يحفظ لغته، لتبقى سليمة وبعيدة عن كل الشوائب.

(٤٢) الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية ـ بيروت، ص ٢٣٨.

(٤٣) سورة محمد، الآية: ٣٠.

(٤٤) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون ـ مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي ج ٥، ص ٢٤٠.

بعضٍ»[٤٥]، أي: أفطن لها وأجدل. وهو اللغة، كقول عمر (رضي الله عنه): «تعلموا الفرائض والسُّنّة واللحن كما تتعلمون القرآن[٤٦]، والمراد هنا من اللحن اللغة.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾[٤٧]، العرم تعني المُسْناة بلحن اليمن أي: بلغتهم[٤٨]. ومن معانيه الغناء والتطريب. قال ابن منظور: «اللحن من الأصوات الموضوعة، وجمعه ألحان ولحون. ولحَّنَ في قراءته إذا غرَّد وطرَّب فيها بألحان»[٤٩].

وقيل: «اللحن يعني النحو»[٥٠].

ومن معانيه الأساسية التي ذكرتها المصادر، الخطأ في الإعراب. قال أحمد بن فارس: «فأمّا اللحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية»[٥١].

وجاء في لسان العرب لابن منظور أن العُتَيْبيَّ قال: ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة فحرَّك الحاء. وقال غيره: إنما أراد اللحن ضد الإعراب، وهو يستملح في الكلام إذا قلَّ وكأنَّ اللحن في العربية راجع إلى هذا، لأنه من العدول عن الصواب. فهو بتسكين الحاء، وهو الخطأ في الكلام. ورجل لاحِن لا غير إذا صرف كلامه عن جهته. ولَحَنَ فلان، أي: قد أخذ في ناحية الصواب أي: عدل عن الصواب إليها. وقيل معنى قوله: «وتلحن أحياناً أنها تخطىء في الإعراب»[٥٢].

وذكر الدكتور عبد العزيز مطر أنَّ اللحن يأتي بمعنى الخطأ في اللغة، أي: في أصواتها أو نحوها أو صرفها، أو معاني مفرداتها. وبذلك لا يكون اللحن بمعنى الخطأ في الإعراب فقط[٥٣]. ومن اللحن في الأصوات تحريف كلمة «عربي» إلى أربي» و«طرق» إلى«ترك» وقد نتج هذا النوع من اللحن لمّا ثقل على الأعاجم إخراج أحرف الحلق، وأحرف الأطباق بوضوح أصواتها؛ فشكا الناس من فساد الألسنة واضطرابها[٥٤]. واللحن في صرف اللغة العربية في نحو: «هذه عصاتي»[٥٥]، فزيدت التاء على بنية الكلمة ووقع اللحن. والأصل: هذه عصاتي بفتح الياء. واللحن في معاني

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٥، ص ٢٤٠.
(٤٦) لسان العرب لابن منظور، دار صادر ـ بيروت، مادة ل ح ن.
(٤٧) سورة سبأ، الآية: ١٦.
(٤٨) الأضداد للأنباري، ص ٢٤٠.
(٤٩) لسان العرب لابن منظور، مادة (ل ح ن).
(٥٠) الأضداد للأنباري، ص ٢٤٠.
(٥١) معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٢٣٩.
(٥٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (ل ح ن).
(٥٣) لحن العامة في ضوء الدراسات الحديثة، للدكتور عبد العزيز مطر. دار الكتاب العربي ـ القاهرة، ص ٢٨.
(٥٤) دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين ـ بيروت، ص ١١٨.
(٥٥) البيان والتبين للجاحظ، ج ٢، ص ٣٢٣.

المفردات في مثل افتحوا سيوفكم، والأصل سلّوا سيوفكم. وقد أورد الجاحظ رواية ورد فيها هذا النوع من اللحن. ومما جاء فيها أن زياداً أوفد عبيد الله بن زيادَ إلى معاوية، فكتب إليه معاوية أنَّ ابنك كما وصفت، ولكن قوّم من لسانه. وكانت في عبيد الله لكنة، لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة، وكان زياد تزوجها من شيرويه الأسواري. وكان قال مرة: افتحوا سيوفكم؛ يريد سلّوا سيوفكم. فقال يزيد بن مفرغ:

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكل أمرك للضّياع[٥٦]

ولا ريب في أن الخطأ في أصوات اللغة العربية، وبنيتها، ومعاني مفرداتها، دفعت اللغويين والعلماء للذهاب إلى البوادي، للاستماع إلى العرب الأقحاح، والأخذ عنهم اللغة السليمة، ليحفظوها في المعاجم والتصانيف شعوراً منهم بأن صون هذه اللغة هو صون للقرآن الكريم.

ولكنَّ الذي يعنينا من أنواع اللحن هو ما كان بمعنى الخطأ في الإعراب الذي كان السبب الجوهري في نشأة النحو.

وقد ظهر اللحن الذي معناه الخطأ في الإعراب، في عصر صدر الإسلام، لأسباب سنذكرها لاحقاً، ولكن كان له جذور في العصر الجاهلي. فالنابغة الذبياني الذي جاء إلى المدينة، وطلب من إحدى الجواري أن تغنّي:

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزوّد
زعم البوارح أنَّ رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغراب الأسودُ[٥٧]

وقد تعمّدت المغنيّة إظهار الضمة على الدال في لفظة «الأسود». فاستدرك النابغة الخطأ وأصلحه قائلاً:

زعم البوارح أنَّ رحلتنا غداً وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ

و«مزود» مجرورة باعتبارها مضافاً إليه. ولفظة «الأسود» مرفوعة قبل التصحيح باعتبارها صفة لموصوف مرفوع. وهذا يسمى، في علم العروض، إقواء؛ وهو اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة[٥٨].

غير أنَّ أحمد بن فارس وأبا بكر الزبيدي صرّحا بأنَّ العرب تكلموا بطباعهم السليمة، ونطقوا

---

(٥٦) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٣١٩.

(٥٧) كتاب الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي، تحقيق الحساني حسن عبد الله. نشرة خاصة عن الجزء الأول من المجلد الثاني عشر لمجلة معهد المخطوطات ـ عالم المعرفة، ص ١٦٠.

(٥٨) فن التقطيع الشعري والقافية للدكتور صفاء خلوصي، منشورات مكتبة المثنى ببغداد الطبعة الخامسة، ١٩٧٧، ص ٢٧٦.

على سجيتهم في الجاهلية، ولم يتسرب اللحن إلى لغتهم إلا عن طريق الموالى. قال صاحب المقاييس: «وهذا عندنا من الكلام المولّد، لأنّ اللحن المحدث، لم يكن في الغرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة»(٥٩) وقال الزبيدي: «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها»(٦٠).

ولخطورة اللحن وأثره السلبي على لغة القرآن الكريم، استخفه العرب وذمّوه بالإضافة إلى ذمّ اللحانين. قال الأنباري: «إنّ اللحن تستخفه العرب في جميع الأحوال من كل ذكر وأنثى»(٦١). وروي أنّ بشير بن عبيد الله كتب على خاتمه العبارة الآتية: (بشيرَ بن عبيد الله بالرحمٰن لا بشرك). ولمّا قرأها أبوه، ووجد فيها لحناً قال: «هذا أقبح من الشرك»(٦٢). وروي أيضاً أنّ عبد الله بن مروان قال في ذمّ اللحن «اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأي، واللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه»(٦٣).

وتكثر صور ذم اللحن واللحانين في المصادر العربية كما تجلبه هذه الآفة من فساد في لغة كتاب الله. قيل إنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) استقبح رمي قوم فقال لهم: «ما أسوأ رميكم» فأجابوه بقولهم: «نحن قوم متعلمين»، والصواب «متعلمون» لكون هذه الكلمة صفة الموصوف مرفوع. فالخطأ في إعرابها دفع عمر للقول: «لخبكم أشدُّ عليَّ من فساد رميكم»(٦٤). وروي عنه أنه سمع رسول الله (ص) يقول: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه»(٦٥). وقيل إنّ عمر كان يضرب بنيه على اللحن»(٦٦).

وكان عمر بن عبد العزيز يكره اللحن، ويتلذذ بسماع الكلام المعرب فقد قال: «إنّ الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن، فأردّه عنها وكأني أقضم حبّ الرمان، لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيُعرب، فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه»(٦٧). وقال عبد الملك بن مروان: «ليس للاحنِ حرمة»(٦٨). وقيل إنّ رجلاً قال للحسن: يا

---

(٥٩) مقاييس اللغة الأحمد بن فارس، ج ٥، ص ٢٣٩.

(٦٠) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي الأندلسي، تحقيق أبو فضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ص ١١.

(٦١) الأضداد، ص ٢٤٦.

(٦٢) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٣٢١.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٩.

(٦٤) الأضداد، ص ٢٤٤.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

أبي سعيد. فأجابه الحسن قائلاً: «كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول: يا أبا سعيد؟»(٦٩). والمعلوم أن القاعدة النحوية تقضي بأن ينصب المنادى المضاف وجوباً لذلك وجب أن يقال: يا أبا سعيد.

وورد في البيان والتبيين أنَّ قاضياً لعن رجلاً على لحنه حين جاء مع أخيه إلى زياد قائلاً له: إنَّ أبونا مات، وإنَّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأجابه زياد بقوله: الذي أضعت من لسانك أضرّ عليك ممّا أضعت من مالك. ولما سمع القاضي لحن هذا الرجل تضايق للغاية ثم لعنه، ولم يترحم على أبيه داعياً من الله إلحاق الأذى بأخيه وقال للرجل: «فلا رحم الله أباك ولا نيَّح عظم أخيك، قم في لعنة الله»(٧٠).

وكان التهكم باللحانين الذين ينتقدون غيرهم على لحنهم وهم، في الوقت نفسه، يلحنون، بارزاً من خلال رواية تفيد أنَّ بشر بن مروان قال لغلام له، في حضرة عمر بن عبد العزيز: «أدعُ لي صالحاً، فقال الغلام: يا صالحاً، فقال له بشر: ألقِ منها (ألف). فقال له عمر: وأنت، فزد في ألفك ألفاً»(٧١). والصواب: يا صالحُ، لأن المنادى هنا مفرد علم ويجب بناؤه على الضم في محل نصب. وكذلك يجب القول: ألف منها ألفاً، لأن الألف واقعة في محل نصب مفعول به.

ويقال بل اللحن الإعراب الذي هو «الإبانة عن المعاني بالألفاظ»(٧٢) نحو: أكرم عليٌّ حسناً، فرَفْعُ عليٌّ دلّ على أنه فاعل لفعل أكرم، ونصْبُ حسنٍ دلَّ على أنه مفعول به لذات الفعل. ولو جاء الاسمان مرفوعين معاً أو منصوبين، لحصل لَبْسٌ وغموض في المعنى، ولم يُعرف الفاعل من المفعول به. وهذا ما يسمى بتحريف حركات الإعراب. وقد أدّى مثل هذا التحريف في قراءة بعضهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾(٧٣) إلى فساد المعنى في الآية الكريمة، إذ قرىء لفظ الجلالة (الله) بالرفع على أنه فاعل و(العلماء) بالنصب على أنه مفعول به. وبذلك يصبح المعنى أنَّ (الله) سبحانه وتعالى، هو الذي يخاف العلماء. وبالتأكيد هذا كفر وإلحاد.

وقد تجلّت أهمية الإعراب في دعوة الرسول (ص)، الناس إلى فهم الكلام وصولاً إلى فهم معاني القرآن من خلال هذا الإعراب فقال: «أعربُوا الكلام كيْ تعربوا القرآن»(٧٥).

---

(٦٩) البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٧٠) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٧١) الصمدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢١.

(٧٢) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان، ج ١، ص ٣٥.

(٧٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٧٤) الأضداد للأنباري، ص ٢٤٤.

(٧٥) مقدمتان في علوم القرآن، ص ٢٦٠.

وقد أشاد أبو بكر الزبيدي به حين صرَّح بأنَّ الله العلي القدير «جعل الإعراب حَلياً للسان، وزماناً وفصلاً لما اختلف فيه من معانيه»[٧٦]. ويقول في موضع آخر: «ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها[٧٧].

وقال مالك بن أنس: «الإعراب حلي اللسان، فلا تمنعوا ألسنتكم حَلْيها»[٧٨]. ومما قاله عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «تعلّموا العربية فإنها تشبِّب العقل، وتزيد في المروءة»[٧٩].

إزاء ما قيل في اللحن وخطره على القرآن الكريم من خلال قضائه على اللغة العربية، وإزاء ما قيل في الإعراب ومحاسنه وفوائده المردودة إلى كتاب الله، فهل من غرابة من نهوض العلماء لوضع علم يحدد للغة العربية قواعد وقوانين تعصمها عن الخطأ، وتحميها من الرصانة واللكنات، ليصان بها القرآن من الشوائب؟

ولا عجب على الإطلاق إذا ما حثَّ هؤلاء العلماء الناس إلى تعلم النحو مشيدين به. كان أيوب السختياني يقول: تعلموا النحو، فإنه جمال للوضيع، وتركه هجنة للشريف»[٨٠]. وقال عمر (رضي الله عنه): «تعلموا النحو كما تعلّمون السنن والفرائض»[٨١].

ولمَّا كان تهديد اللحن للغة العربية بالفساد والضياع، تهديداً مباشراً للقرآن، فإنَّ النحو لحماية هذه اللغة من هذا الوباء، صون لهذا القرآن، إذ تتوضح معانيه من خلال إعرابه وتستقيم قراءته، وأيُّ لَبْس فيه يؤدي إلى فساد هذه المعاني. وهذا ما لا يرضاه المؤمنون أو يسلّمون به إيماناً منهم بأن هذا الكتاب الكريم يمثل دستوراً غيَّر تاريخ العرب، بنقلهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد متفيّئين بظلال الإسلام لينهلوا من معين الدين الجديد أسمى القيم، وأنبل المثُل وأشرف المبادىء.

ومن هذا المنطلق نحكم بأن القرآن كان السبب المباشر في نشأة النحو، لمقاومة اللحن الذي ظهرت بواكيره في العصر الجاهلي، على حد زعم البعض[٨٢]. وتكاد لا تبدو واضحة المعالم، وغير مؤثرة في اللغة العربية التي تكلم بها العرب، قبل الإسلام، عن سليقة.

غير أنَّ مظاهره بدأت تبرز مع ظهور الإسلام، من عهد النبي (ص) الذي نبَّه إلى خطورته بعد

---

(٧٦) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي، ص ١١.
(٧٧) المصدر نفسه، ص ١١.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٧٩) المصدر نفسه، ص ١٣.
(٨٠) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٣٢٣.
(٨١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٣.
(٨٢) النحو العربي ومناهج التأليف للدكتور شعبان عوض محمد العبيدي، منشورات جامعة قار يونس، ص ٧٥.

أن سمع رجلاً يلحن فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضلَّ»[٨٣]. ثمَّ أخذ خطره يزداد ويتفاقم لأسباب، أبرزها اختلاط العرب بالأعاجم بعد أن بشَّر النبي (ص) بالدين الجديد، «فدخل فيه الناس أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية فتفطّن لذلك مَنْ نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فُشوِّ ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سبَّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه»[٨٤].

ويلتقي ابن خلدون مع الزبيدي في ردّ انتشار اللحن إلى اختلاط العرب بالأعاجم، وشعوب الأمصار المفتوحة، ويقرر بأنَّ هذا المرض يفسد الملكة اللسانية بما ألقى إليها المسمع من المخالفات الأعجمية فهو يقول في مقدمته المشهورة: «فلمَّا جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها بجنوحها إليه باعتياد السمع»[٨٥].

كذلك يسهب المحدثون في الحديث عن ظهور اللحن وانتشاره بشكل خطير، بعد ظهور الدعوة الإسلامية بسبب مخالطة العرب لأهل البلاد المفتوحة. فيرى أحمد أمين أنَّ جزيرة العرب أصبحت مرتاداً للأعاجم، وأنَّ حاضرة الإسلام، في عهد الخلفاء الرَّاشدين هي المدينة، حيث يؤمها المسلمون من كل حدب وصوب لأداء فريضة الحجّ، الأمر الذي أدَّى إلى فساد اللغة العربية[٨٦]. وفضلاً عن ذلك تدفق الأعاجم أفواجاً إلى المدينة لقضاء مصالحهم في حاضرة الخلافة، وأقبل الرقيق والجواري إلى الجزيرة العربية، حيث اتخذهم سادة العرب خدماً لإدارة المنازل. وبذلك اختلط العجم بالعرب في البيوت، والأسواق، والمناسك، والمساجد، فنتج عن ذلك الاختلاط خلل في لسان العرب الذين كانوا يتكلمون العربية عن سليقة وأخذ الفساد يدبّ فيها، فظهر اللحن، وانتشر خارج الجزيرة العربية، حيث خالط عرب مصر، الأقباط، وعرب الشام الشاميين، وعرب العراق الفرس والنبط[٨٧].

وبفعل هذا الاختلاط الاجتماعي، ظهر اللحن، فهدد اللغة العربية بالضياع حتى، دخل بيوت العلماء والخلفاء. فقد لحن أحد قضاة واسط عندما قال: «أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم»[٨٨]. علماً بأن القاعدة النحوية تقضي بأن يقول: أن نقومَ. فجزم الفعل المضارع بـ (أن) بدلاً من أن ينصبه.

---

(٨٣) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٥. ص ٥.

(٨٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص ١١.

(٨٥) المقدمة لابن خلدون المغربي، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ص ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧.

(٨٦) ضحى الإسلام لأحمد أمين، دار النهضة ـ مصر. ج ٢، ص ٢٥١.

(٨٧) أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو للدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني ـ الناشر وكالة المطبوعات ـ الكويت. ص ٤٨.

(٨٨) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٣٢٤.

وهكذا فإنَّ اللحن الذي أصاب الخاصة والعامة من الناس كان نتيجة لتأثر العرب بالأعاجم الذين يثقل عليهم إخراج الأحرف بوضوح أصواتها في العربية، علماً بأن هؤلاء العرب كانوا قد ورثوا عربيتهم معربة، وقرأوا القرآن معرباً، وتناقلوا الأحاديث النبوية الشريفة معربة أيضاً. لكنَّهم أدركوا أنهم لولا خلاطهم بالأعاجم لما لحنوا في نطق، ولا شذُّوا في تعبير(٨٩).

إزاء هذا الخطر الشديد الناشىء عن اللحن، خشي العلماء أن تسوء قراءة القرآن، وتفسد معانيه بسبب هذا اللحن، فرأوْا أنه لا بدَّ لهم من علم يضع للغة العربية قوانين وقواعد لضبطها وتوضيح معانيها خدمة للنص القرآني، قال ابن خلدون في مقدمته: «وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة، مطردة شبه الكليات، والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أنَّ الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب، والمبتدأ مرفوع».

ثم يشير ابن خلدون إلى أنَّ العلماء رأوا أنَّ الدلالة تكون بتغيير حركات هذه الكلمات، واصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيير عاملاً. وهذه التسميات صارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيَّدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة و«اصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»(٩١).

وعلى هذا الأساس فإن المحافظة على الإسلام لا تتحقق إلاّ من خلال المحافظة على القرآن الكريم، وذلك بصونه من اللحن بإيجاد علم النحو الذي كان كتاب الله باعثاً على ظهوره ونشأته. ويظهر تأثير القرآن في نشأة هذا العلم واضحاً من خلال نماذج كثيرة، وملاحظات عديدة، يبدو فيها اللحن بارزاً في قراءة كتاب الله، أو في غيره. ومن هذه النماذج ما جاء في رواية مفادها أنَّ عليّ بن أبي طالب (ع)، سمع أعرابياً يقرأ في القرآن من سورة الحاقّة «لا يأكله إلاّ الخاطئين»، فلحن بقوله: (الخاطئين). وهذا اللحن هو الخطأ في الإعراب، إذ آتى هذه الكلمة، في قراءة الأعرابي منصوبة على الاستثناء في حين أن القاعدة النحوية تقضي بأن ترفع باعتبارها فاعلاً لفعل (يأكل). وبذلك تصبح القراءة الصحيحة ﴿لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ﴾(٩٢) لأنَّ الاستثناء مفرغ(٩٣). ولا شكَّ في أنَّ خطأ هذا الأعرابي في قراءته للآية الكريمة أفسد المعنى وأثار غيض الإمام الذي باشر بوضع النحو وطلب من أبي الأسود أن ينهج نهجه ويكمل عمله حين دخل على أمير المؤمنين، فوجد في يده رقعة. فسأله أبو الأسود قائلاً: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فأجابه (ع)، «إني تأملت كلام الناس، فوجدته قد

(٨٩) دراسات في فقه اللغة العربية للشيخ صبحي الصالح، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٩٠) المقدمة لابن خلدون، ص ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧.
(٩١) المصدر نفسه، ص ١٠٥٧.
(٩٢) سورة الحاقة، الآية: ٣٧.
(٩٣) أوضح المالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ١٩٦٦، ج ٢، ص ٦٠.

فسد بمخالطة الحمراء، يعني الأعاجم، فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه. ثم ألقى إليَّ الرقعة، وفيها مكتوب: الكلام كله اسم وفعل وحرف فالإسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبىء به، والحرف ما جاء لمعنى. وقال لي: انحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك. واعلم يا أبا الأسود، أنَّ الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر. وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود، فيما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم(٩٤).

ومن النماذج التي يظهر فيها اللحن في قراءة القرآن ما جاءت به بعض الروايات تفيد بأنَّ أعرابياً قدم في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: مَن يقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمّد (ص)؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال: «إنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه، بجر لفظة (رسول) فقال الأعرابي: أو قد برىء الله من رسوله؟ إنْ يكن الله بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه. ولما أخبر عمر، رضي الله عنه، لما قاله الأعرابي، دعاه وقال له: يا أعرابي، تبرأ من رسول الله؟ فأجاب الأعرابي قائلاً: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت مَنْ يقرئني؟ فأقرأني هذا الرجل سورة براءة قائلا: إنَّ الله بريء من المشركين ورسوله بالجر. فسألته مستفهماً: أو قد بريء الله من رسوله؟ وقلت: إن يكن الله تعالى بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه. فهدّأ عمر، رضي الله عنه، من روع الأعرابي، وهوَّن عليه قائلاً له: «ليس هذا يا أعرابيُّ، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿إنَّ الله بريءٌ مِنْ المشرِكينَ وَرَسولُهُ﴾(٩٥). فقال الأعرابي: وأنا والله، أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم»(٩٦).

من خلال هذه الرواية، نجد أنَّ اللحن الذي أصاب لسان الرجل، فأقرأ الأعرابي الآية خطأً، أفسد المعنى، وأثار استغراب هذا الأعرابي واستهجانه، لا بل دفعه إلى أن يبرأ من الرسول (ص) ما دام الله تعالى، بريء منه وفق قراءة الرجل الذي جرَّ كلمة (الرسول)، ودفع الخليفة عمر إلى إصدار أمر بأن «لا يقرأ القرآن إلّا عالم باللغة»(٩٧). خوفاً من فساد معانيه.

وهذا يعني أنَّ العلماءِ وحدهم، كانوا يحسنون قراءة القرآن قراءة سليمة، نظراً لتلقيهم اللغة الصحيحة من العرب الخلص القاطنين في البادية، في حين أن السواد الأعظم من الناس، بعد اختلاطهم بشعوب الأمصار، أخذوا يلحنون في قراءة الآيات القرآنية وغيرها، الأمر الذي دعا الصحابة والعلماء إلى وضع علم يحمي لغة كتاب الله.

وتقول رواية أخرى إنَّ زياد بن أبيه بعث إلى أبي الأسود الدولي وقال له: «يا أبا الأسود، إنَّ

(٩٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، تحقيق الدكتور إبراهيم السمرائي، مكتبة الأندلس ـ بغداد، الطبعة الثانية، ص ١٨ ـ ١٩.

(٩٥) سورة براءة، الآية:

(٩٦) نزهة الألباء لابن الأنباري، ص ٢٠.

(٩٧) نزهة الألباء لابن الأنباري، ص ٢٠.

هذه الحمراء قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب. فلو وضعت لهم شيئاً يصلح به الناس، ويعرب به كتاب الله»[٩٨]. غير أنَّ أبا الأسود رفض طلب زياد. عندئذ طلب ابن أبيه من رجلٍ أن يجلس على قارعة الطريق منتظراً أبا الأسود حتى يمرَّ ليقرأ له الآية الكريمة «إنَّ الله بريء من المشركين ورسوله». ولما مرَّ أبو الأسود قرأ الرجل الآية، بكسر اللام من (رسوله)، فاستبعد أبو الأسود ذلك وقال: «عزَّ وجه الله تعالى، أن يبرأ من رسوله»[٩٩]. فما كان فيه إلّا أن عاد حالاً إلى زياد ليعتذر منه على عدم تلبية طلبه في البداية، ويعلن استعداده للبدأ بإعراب القرآن بعد أن سمع لحن الرجل في قراءته. وقد أحضر زياد ثلاثين رجلاً اختار منهم أبو الأسود عشرة، وكان بينهم رجل من عبد قيس قال له أبو الأسود: «خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد. فإذا فتحت شفتيَّ فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها، فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله. فإن اتبعت شيئاً من الحركات غنّة، فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره»[١٠٠] وكانت النقطة فوق الحرف تعني الفتحة، وأسفل المكسور تعني الكسرة، وبين يدي المضموم تعني الضمة[١٠١].

وتعدَّى اللحن في القرآن العامة إلى الخاصة، فطال البلغاء والفصحاء. فقد روي أنَّ الحجاج بن يوسف سأل يحيى بن يعمر قائلاً له: «أتجدني ألحن؟ فقال: الأمير أفصح من ذلك، فقال: عزمت عليك لتخبرني أألحَن؟ قال يحيى: نعم، فقال له: في أيِّ شيء؟ فقال: في كتاب الله تعالى. فقال: ذلك أشنع. ففي أي شيء من كتاب الله تعالى؟ قال: قرأت: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[١٠٢]، فرفعت (أحبُّ) وهو منصوب. فقال له الحجاج: طول لحيتك أوقعك، وكان طويل اللحية. فقال رجل ممن حضر: أيها الأمير، حدَّثني كعب الأخبار أنّه مكتوب في بعض الكتب أنَّ اللحية مخرجها من الدماغ، فمن تفرط عليه لحيته في طولها يخف دماغه، ومن خفَّ دماغه قلَّ عقله، ومَنْ قلَّ عقله كان أحمق، والأحمق لا يسمع سنه. فقال ليحيى: لا تساكني ببلد أنا فيه، ونفاه إلى خراسان»[١٠٣].

يظهر في هذه الرواية أنَّ الحجّاج رأى لحنه في القرآن أمراً خطيراً، لا بل إهانة فظيعة له، نظراً لعظمة الكتاب المجيد. والمعلوم أنَّ مثل هذا اللحن عند الخاصة، كالحجّاج يستغربه الناس

---

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(١٠٠) المصدر نفسه ص ٢٠.

(١٠١) النحو وكتب التفسير للدكتور عبد الله رفيده، الدار الجماهيرية، للنشر والتوزيع والإعلان، ج ١، ص ٣٨ - ٣٩.

(١٠٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(١٠٣) نزهة الألباء لابن الأنباري، ص ٢٥.

ويستخفون بصاحبه ويعيّبونه على هذا الخطأ. لذلك لم يرضَ الأمير نقد يحيى له فتهكمه، وهزىء به من كان في المجلس ثم نُفي ابن يعمر إلى خراسان باعتبار أنَّ الحجّاج مثلاً يقتدى به، لا موضع انتقاد وتجريح.

وانطلاقاً من هذه المظاهر للحن في الآيات القرآنية، على لسان العامة والخاصة، نؤكد أنَّ القرآن الكريم كان السبب المباشر في نشأة النحو، لأنَّ إعراب كتاب الله، لفهم معانيه وإدراك مضامينه، باعث أصيل على وضع هذا العلم وتأسيس قواعده.

وما العمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي من حيث نقط المصحف إلاّ خطوة هامة في نمو النحو وإيضاح معالمه، صوناً لكتاب الله من التحريف والتصحيف واللحن.

ويظهر تأثير القرآن في نشأة النحو من خلال حرص الأمويين على سلامة اللغة العربية، وعلى القرآن بالذات، وذلك لحاجتهم الماسة إلى الحفاظ على كيانهم الجديد، وتدعيم أركانه، للاستئثار بالحكم. فقد رأى خلفاؤهم وأمراؤهم أنهم قدوة من الناحيتين الدينية والاجتماعية.
وما داموا هكذا، فعليهم أن ينجزوا عملاً جليلاً يتباهَوْن به، ويتحدث الناس بهذا الإنجاز العظيم ثم يثنون عليهم بالمدح والإطراء. وهل من شيء أجلّ من حماية القرآن، من خلال المحافظة. على اللغة العربية؟ لذلك خشي الأمويّون أن يتسرّب اللحن إلى تلك اللغة، في أثناء قيام دولتهم الفتية، بعد اختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد التي دخلها المسلمون فهبّوا لحمايتها تحقيقاً لحماية القرآن الذي يمثل دستور المسلمين. سئل عبد الملك بن مروان عن تعجيل الشيب إلى رأسه، فقال: «شيبني ارتقاء المنابر ومخافة اللحن»(١٠٤).

وفضلاً عن ذلك فقد توجه المعلمون في العصر الأموي لإصلاح منطق التلاميذ الذين لم يعد تعليمهم محصوراً بالقرآن وحفظه، بل تعدّاه إلى تعلم الشعر والسنن والفرائض والتفسير، تجنباً للتراطن الناتج عن اختلاط العرب بشعوب الأمصار. وقد حرص هؤلاء المعلمون على إصلاح منطق طلابهم حتى ينطقوا نطقاً عربياً سليماً(١٠٥).

وقد كثرت الملاحظات لقصد إصلاح المنطق اللساني في غير الآيات القرآنية. يروى أنَّ أبا الأسود الدؤلي طلب من زياد أمير البصرة أن يأذن له بوضع علم للعرب يعرفون به كلامهم، فرفض الأمير طلبه. ومرَّت الأيام إلى أن جاء رجل إلى زياد، فقال له: «توفي أبانا وترك بنون. فقال له زياد: توفي أبا وترك بنون؟ ادعُ لي أبا الأسود. فلما جاءه، قال له: إصنع للناس ما كنت قد نهيتك عنه، ففعل»(١٠٦).

---

(١٠٤) من تاريخ النحو لسعيد الأفغاني، دار مكتبة الفكر، طرابلس ـ ليبيا، ص ١١.
(١٠٥) النحو وكتب التفسير للدكتور عبد الله رفيدة، ج ١، ص ٧٠.
(١٠٦) نزهة الألباء، ص ٢١.

والملاحظ أن اللحن في قول الرّجل واضح للغاية. وكان عليه أن يقول: توفي أبونا وترك بنين، لأن (أبونا) في موضع رفع على أنه نائب فاعل وعلامة رفعه الواو لأنه من الأسماء الستة. وكذلك كلمة (بنين) فهي في موضع نصب باعتبارها مفعولاً به (ترك)، وعلامة نصبها الياء لأنها من الملحقات بجمع المذكر السالم.

وورد في رواية أخرى أنَّ ابنة أبي الأسود قالت لأبيها متعجبة: «ما أحسن السماء، فقال لها: نجومُها. فقالت إني لم أرِد هذا؛ وإنما تعجبت من حسنها. فقال لها: إذاً فقولي ما أحسن السماءَ. فحينئذ وضع النحو»[١٠٧]. وإذا نظرنا إلى كلام ابنة أبي الأسود نجد اللحن فيه ظاهراً. وأدى هذا اللحن إلى سوء فهم مرادها. فهي تريد التعجب من جمال السماء وحسنها. وسبب هذا اللبس أنها لم تنصب (السماء)، بل جرتها متوهمة أنَّ (أحسن) مرفوع و(السماء) محفوظة بإضافة (أحسن) إليها. ووفق قراءتها لهذه الجملة تصبح (ما) مبتدأ و(أحسن) خبراً له. ويكون معنى الكلام استفهاماً لا تعجباً. ولاستقامة المعنى، أي لمجيئه تعجباً أصلح أبو الأسود الخطأ فأصبحت الجملة: مَا أَحْسَنَ السَّماءَ.

وجاء في الأضداد للأنباري رواية شبيهة بالرواية السابقة يظهر فيها اللحن على لسان ابنة أبي الأسود في عبارة تتفق مع العبارة السابقة بالمعنى، وتختلف عنها بالشكل. تقول الرواية إنَّ هذه الفتاة قالت لأبيها حين شعرت بشدة الحرّ، وهي تريد التعجب: «ما أشدّ الحرّ». فلم يدرك والدها مقصودها؛ إذ كان خطأً. فسألها مستفهماً: يا بنيَّة، حرٌّ تهامة؟ فأجابت بأنها لا تستفهمه، بل تريد التعجب من شدة الحر. فطلب منها أبو الأسود أن تصحح خطأها بقولها: ما أشدَّ الحرَّ. أي تنصب كلمة (الحرّ) بفعل التعجب (أشدَّ). ولو بقيت هذه العبارة على القراءة الأولى أي قبل التصحيح، لكانت على الشكل التالي: «ما أشدُّ الحرُّ». عندئذ تصبح كلمة (أشد) مرفوعة باعتبارها خبراً للمبتدأ (ما) و(الحرُّ) مضاف إليه[١٠٨].

ومن مظاهر اللحن التي تقلب معنى المراد، وتوهم المخاطب غير مراد المخاطب قصة رجل دخل على عبد العزيز بن مروان شاكياً إليه خَتَنَهُ. فسأله عبد العزيز: ومَنْ خَتَنَكَ؟ فأجابه قائلاً: خَتَنَني الختّان. فاستغرب من كان في المجلس، وقالوا لعبد العزيز: «أيها الأويد، إنّه لم يفهم عنك قولك. قال: فأفهموه. فقالوا: مَنْ خَتَنَكَ؟ قال: خَتَنَني فلان. فاستحيا عبد العزيز وألزم نفسه ألاّ يجلس للناس حتى يعرف من العربية ما يصلح كلامه ويزيل اللحن[١٠٩].

إنَّ هذه النماذج من اللحن في كلام الخاصة والعامة، أثرت سلباً على القرآن حتى ولو لم تكن

---

(١٠٧) نزهة الألبّاء، ص ٢١.

(١٠٨) الأضداد، ص ٢٤٦.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

في الآيات القرآنية، فهي مسيئة للغة العربية بشكل عام وللقرآن بشكل خاص، لأنَّ أي خطر يواجه هذه اللغة، يواجه هذا القرآن في آن واحد. من هنا نقول إنَّ المحافظة على كتاب الله نابعة من المحافظة على هذه اللغة ومن هنا نقول أيضاً إنَّ السبب الأهم في نشأة النحو هو القرآن الكريم، وإن هذه النشأة كانت في رحابه، وإنَّ اللحن في قراءته كان اللافت للانتباه، والداعي لتقنين كلام العرب، بما يحفظ عليهم لغتهم فصيحة سليمة من الاضمحلال والزوال. نعم، نشأ النحو العربي بوحي من القرآن كما نشأت سائر العلوم الإسلامية والعربية بوحي منه أيضاً، ونضحت في رحابه لخدمته. وفي هذا يقول الرافعي في تاريخ آداب العرب: «غير أنّا نوثق الكلمة في أنَّ القرآن الكريم كان سبب العلوم الإسلامية، ومرجعها كلها، بأنه ما علم إلاّ وقد نظر أهله في القرآن، مادة علمهم، أو مادة الحياة له»(١١٠).

لكن أبرز العلوم التي تخدم القرآن في النحو لأنه «أخص ما يخدم به نص القرآن، ويحافظ به عليه، ويفهم به... فلا عجب إن كان هذا الكتاب الخالد هو الباعث الأول على نشأة النحو، وأن يوضع هذا العلم في رحابه، ابتغاء القدرة على النطق به صحيحاً سليماً من اللحن، والقدرة على فهمه، وابتغاء وجه الله، بخدمته وخدمة أتباع دينه»(١١١).

وفي الختام نستطيع القول بأنه، كما بذلت جهود كبيرة لتوثيق النص القرآني بالرواية والكتابة، كذلك بذلت جهود جبارة لإنجاز عمل عظيم من قبل العلماء كانت حاجة المسلمين تدعو إليه، وتختمه الظروف الاجتماعية، بعد اتساع دولتهم حيث تعرضت ألسنتهم للضعف، وسلائقهم السليمة للفساد. ويتمثل هذا الإنجاز بوضع علم النحو وسن قواعد العربية، وذلك لتأدية واجب إسلامي تجاه من دخلوا في الإسلام، وتلقوا بكتاب الله، للنطق به نطقاً صحيحاً بعيداً عن الاتضاخ(١١٢) بكلماته ومخارج حروفه، لذلك كان للقرآن تأثير بالغ الأهمية في نشأة النحو العربي.

---

(١١٠) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي، ج ٢، ص ١١٨.

(١١١) النحو وكتب التفسير، ج ١، ص ٤٣.

(١١٢) الارتضاخ مصدر ارتضخ: يقال: تراضخ القوم أي: تراموا. ويقال: هو يرتضخ لُكنةً عجمية إذا نشأ مع العجم، ثم صار إلى العرب، فهو ينزع إلى العجم في ألفاظٍ ولو اجتهد. محيط المحيط، مادة (ر ض خ).